أحب اليمن كما لم يحبها أديبٌ وشاعرٌ بل إنسانٌ عربيٌّ سواه..

الشاعر العربي الكبير سليمان العيسى يرفرف بعيداً عن الدنيا

منيت الساحة الثقافية العربية بخسارة علم من أبرز أعلامها الابداعية الشعرية وطوداً شامخاً من أطوادها الثقافية والنضالية.. إنه شاعر العروبة والقومية والطفولة والحب الشاعر العربي السوري العربي الكبير سليمان العيسى الذي وافته المنية يوم أمس الأول في العاصمة السورية دمشق عن عمر ناهز التسعين عاماً، لم يبخل بشيء منها أو يتوانَ عن بذلها في سبيل الكلمة المضيئة والفكرة الراسخة والانتماء المتأصل إلى العروبة التي عايشها كأمٍ لها حق الوفاء والطاعة والولاء..

إعداد/ جميل مفرِّح - محمد القعود

إنه سليمان العيسى..صوت ثقافي إبداعي عربي أصيل ظل لعقود يتهادى شعراً وفكراً وثقافة وكأنه لم يخلق لسوى ذلك، أو كأن الإبداع والثقافة والفكر الوطني والقومي النير معان ومفردات لم توجد إلا له أو به.. عشق وطنه الأمَّ ومسقط رأسه وشعره عشقاً مطلقاً وغنى وغرَّد له ما استطاع وبما أوتي من قدرة ومن فنٍّ على الغناء والتغريد، ومثل ذلك غنَّى وغرَّد لوطنه الأشمل وطنه العربي الكبير بكل ما استطاع أن يحب وينتمي.. وبمثل ذلك وأميز قليلاً غنى لليمن يمن الحب كما كان يحلو له الوصف أناشيد من أقدس ما كتب وقال وعزف لها أروع ما يُعزف للأوطان من مقطوعات الكلام والشعر، معتبراً إياها الوطن الأول والأســاس، ليس له ولانتمائه وحسب، وإنما للعروبة وكل العرب.. غنَّاها شعراً وعزفها نثراً وظل يترنم ويدندن بها كلما راودته الكلمة واستأنست به الفكرة وكأنه لم يخلق من سوى ترابها ومائها.. حتى ظنه كثير ممن عرفوه أو قرأوا له أو سمعوه في وهلاتهم الأولى يمنياً في انتمائه وتكوينه وهويته..

ولعله لم يكن من تعبير، عن هذا الانتماء الذي افتخر به طوال حياته كما افتخر به اليمنيون وسيظلون، أبلغ من أن تكون اليمن ويكون اليمنيون من أوائل من هزَّهم وفجعهم وأحزنهم نبأ رحيل هذا الطود الإبداعي الشامخ، ليبادر فخامة الأخ الرئيس عبدربه منصور هادي رئيس الجمهورية ببعث برقية عزاء ومواساة إلى كافة أفراد أسرة الفقيد الراحل، عبَّر فيها، نيابة عن كل اليمنيين، عن عظيم الأسى والأسف لهذا المصاب الجلل.. وأشار الأخ الرئيس في هذه البرقية إلى أن الأديب والشاعر الكبير سليمان العيسى كان من المرتبطين وجدانياً باليمن بصفته أديباً عربياً قومياً سكن اليمن وسكنته وكتب عنها الكثير بكل حب واعتزاز..ونوَّهت البرقية بخصوصية كتابات الراحل ومشاعره تجاه اليمن، تلك الكتابات التي كان لها أثر كبير في ساحة الأدب العربي ومنها ما خص اليمن به من مؤلفات قديرة، مؤكدة على أن كتاباته عن اليمن قد شكلت إثراء جديدا للقصيدة العربية كما عكس بها صورةً مشرقةً ومشرفةً لبلده الثاني اليمن.. وشدَّدت البرقية في التأكيد على أن رحيل هذا الشاعر العربي الكبير يمثل خسارة أدبية بالغة في الساحة الثقافية العربية التي فقدت بهذا الحدث الأليم واحداً من ألمع نجومها المضيئة..

علاقة انتماء

ومن كل ما ورد ومما لم يرد هنا من مسيرة حياة هذا الشاعر العربي الكبير يتضح أنه كانت تربطه باليمن علاقة انتمائية مميزة بدأت منذ زيارته الأولى لها في العام 1972م وتعمقت وتأصلت في زيارات كثيرة قبل أن يستقر به المقام فيها مع زوجته الدكتورة ملكة أبيض حين عملت أساتذة في كلية التربية بجامعة صنعاء ليقضي أكثر من خمسة عشر عاماً هنا في اليمن.. أنجز خلالها الراحل كما يقول خمسة أعمال شعرية عن اليمن ناسها وأرضها وأماكنها ومنها عمله الإبداعي المتميز والمعروف كثيراً (ديوان اليمن) وكذلك ديوان (ثمالات) وديوان (أمشي فتنأين) إلى جانب الكثير من الكتابات والنصوص وقصص الأطفال التي برع وتميز فيها الراحل أواخر سنوات عمره حتى بات يصفه الكثيرون بكاتب الطفل..

ولعل من أهم ما أنجزته الدكتورة ملكة حول الشاعر والأديب الراحل سليمان العيسى هو كتاب بعنوان (اليمن في شعري) ضم نصوصاً شعرية مختارة مما كتبه عن اليمن وقامت بنقل هذا الكتاب إلى الفرنسية وإصداره باللغتين العربية والفرنسية.. جاء هذا الكتاب في أكثر من 135 صفحة من القطع المتوسط وانقسمت مادته على قسمين، الأول ضم القصائد المختارة في لغتها العربية الأصل، بينما احتوى القسم الآخر على الترجمة الفرنسية لتلك القصائد..

كما صدر للراحل عمل شعري آخر عن اليمن بعنوان (يمانيات) ضم في أكثر من 180 صفحة من القطع المتوسط على ثلاث وأربعين قصيدة كانت أحدث وآخر ما كتبه الراحل عن اليمن..

إضافة إلى كتاب (المهد) وهو قصيدة طويلة عن اليمن..

يمنيٌّ وحدوي

الدكتورة ملكة أبيض تقول عن تلك العلاقة الوطيدة التي تربط الشاعر العربي الكبير سليمان العيسى باليمن: «علاقة سليمان باليمن علاقة طويلة وتواصلنا معه تواصلاً مستمراً وتفاعلاً مستمراً إلا أنه في الأخير حظي بالتقدير من الشعب اليمني والرئيس والمثقفين..»

وذلك بعد أن كان الرئيس السابق علي عبدالله صالح قد قلد الراحل في يوم الأربعاء الموافق 6 يوليو 2005م وسام الوحدة (22مايو) تقديراً لمواقفه الأخوية والقومية المـؤازرة للشعب اليمني في قضاياه الوطنية واعتزازاً بعطاءاته الأدبية والثقافية التي شكلت رافداً للثقافة العربية.. وكان الرئيس السابق قد أكد في كلمة بمناسبة تكريم الراحل على أن الشاعر الكبير سليمان العيسى سيظل محل تقدير واحترام من قبل كل اليمنيين اعتزازاً بمواقفه الوطنية والقومية والوحدوية مشيراً إلى أن اليمن ستظل وطناً لكل العرب باعتبارها موطنهم الأول ومنبع العروبة..

وكان مما قاله الراحل في تلك المناسبة عن اليمن ومقامه فيها وعلاقته بها « منذ خمسة عشر عاماً وأنا وزوجتي الدكتورة ملكة أبيض نقيم في اليمن.. نناضل معاً.. ونعيش معاً، هذا الحلم- ويعني حلم العروبة الذي ظل يغني له- هي في جامعة صنعاء تُدرِّس وتؤلف وتترجم وتشغل كل دقيقة من حياتها في خدمة الثقافة والمعرفة التي تستطيع أن تعطيها لأبنائنا وبناتنا في هذا البلد، وأنا أملأ وقتي في حب البلد الذي عدت فيه إلى جذوري القومية الأولى، وسميته المهد، وكتبت له حتى الآن خمسة دواوين شعرية، وهو الذي أملاها على ريشتي..وحين ارتفع علم الوحدة اليمنية على شاطئ عدن سبقته دمعة فرح في عيني، وقصيدة للوحدة كتبتها في اليوم نفسه، ورددتها في اليوم نفسه، شواطئ عدن اللازوردية، وقمم صنعاء السمر، وهضاب تعز الخضراء، وشجرة الغريب التي يربو عمرها على ألفي عام.. نعم في ذلك اليوم الأغر كانت الوحدة اليمنية حدثاً رائعاً، أعاد إلينا الأمل الذي فجعنا به في وحدتنا بين سوريا ومصر... وفي قناعتي التي لم تزعزعها الكوارث والنكبات أن الوحدة ستعيش هنا وهناك, وأنها قادمة يوماً لا محالة لتشمل هذه الأرض العربية كلها، طال الزمن أم قصر»..

العيسى وأدب الطفولة

حول الكتابة للأطفال عرف الراحل بإنتاج غزير وحفظت أناشيده ومسرحياته قي الكثير من البلدان العربية.. وحول ذلك تقول زوجته الدكتورة ملكة أبيض في لقاء أجرته معها مؤخراً وكالة أنباء الشعر :لم يكن شعر سليمان العيسى فقط يتحدث عن الأحداث السياسية، بل كان للأطفال نصيب كبير من هذا الشعر، وأعتقد أنه منذ قرابة 45عاماً وهو يكتب للأطفال، فكانت أناشيده سهلة الحفظ، والآن لو طلبت من أي أب أن ينشد قصيدة لسليمان العيسى كان قد تعلمها في المدرسة سينشدها بكل سهولة ،كونها كانت شيقة وجميلة وأحبها الأطفال كثيراً..

وتضيف الدكتورة ملكة: ودواوين الأطفال عند سليمان كثيرة وقد وضعناها بديوان قرابة 700 صفحة، وكتب لهم الكثير من المسرحيات الشعرية والتي قدم الكثير منها على مسارح المدارس في سوريا..وهو يقترب في هذه المسرحيات من الشعر والشعراء العرب كثيراً فكتب عنهم ومنهم المتنبي والبحتري والمعري وغيرهم كما كتب للأطفال أيضاً قصصاً نثرية..

لم يتوقف عن الإبداع

أما عن آخر سنوات حياته وحالته الصحية واستمرار ارتباطه بالكتابة فتشير الدكتورة ملكة إلى أن الشاعر الراحل ظل يكتب ويبدع ولم يتوقف عن الكتابة والإبـداع، حتى صعب عليه الأمر نظراً لتقدُّم سنه، وأنه مع بداية العام 2012م ساءت حالته الصحية وتم حجز مكان له في مستشفى بالعاصمة السورية دمشق خصوصا بعد تعرضه لحالة ضيق شديد في الصدر أدخل على إثرها العناية المشددة وتوالت بعد ذلك أزماته الصحية..

ومن المعروف أن الدكتورة ملكة أبيض قد قامت بالكثير من الدراسات والقراءات في إبداعات ومؤلفات الراحل وقد قالت في حوار لها أنها أرادت أن يستمر ويتواصل تواجد وحضور صوت واسم الشاعر سليمان العيسى.. ولتحقيق ذلك فقد قامت بإنجاز عدد من البحوث والدراسات عن نتاجه الأدبي والإبداعي مؤكدة على أن ذلك الإنتاج الثر لم يحظ بما يستحق من الاهتمام والدراسة..ومن أبرز ما أنجزته في ذلك السياق: «التراث في ثمالات سليمان العيسى»، «سليمان العيسى في كتاباته النثرية»، «سليمان العيسى بين الأصالة والتجديد»، «سليمان العيسى في مسرحياته الشعرية للأطفال»، «سليمان العيسى في مسرحياته للكبار».. بالإضافة إلى الاشـتراك معه في تعريب قصص عالمية للأطفال.. وكتاب بعنوان «سليمان العيسى وأدب الرحلات» تقوم بإعداده للنشر مؤكدة على أن نتاجه في هذا المجال يكاد يكون مجهولاً..

أخيراً

هذا نزرٌ يسير من فيض كبير مما يمكن قوله وكتابته عن قامة بحجم هذا الشاعر العروبي والقومي الكبير سليمان العيسى.. استدعتنا المناسبة المؤلمة والحزينة لإنجازها في قدر يسير من الوقت..ولكن لا بد أن تكون لنا معه ومع إنتاجه الثر الكثير من الوقفات والتأملات التي سنحاول قدر الاستطاعة من خلالها إنصاف هذه التجربة الإبداعية العربية الكبيرة.. فرحم الله شاعرنا وأديبنا العربي الكبير وتغمَّده الله بواسع الرحمة والغفران وإنا لله وإنا إليه راجعون.

■ سليمان العيسى: حين ارتفع علم الوحدة اليمنية على شاطئ عدن سبقته دمعةُ فرحٍ في عيني، وقصيدةٌ للوحدة كتبتُها في اليوم نفسه، وردَّدتْها في اليوم نفسه، شواطئُ عدن اللازوردية، وقممُ صنعاء السُّمر، وهضابُ تعز الخضراء، وشجرةُ الغريب التي يربو عمرُها على ألفي عام..

سليمان العيسى في سطور

ولد الشاعر سليمان العيسى عام 1921م، في قرية النعيرية – حارة بساتين العاصي – الواقعة غربي مدينة أنطاكية التاريخية على بعد عشرين كيلو متراً.

- تلقى ثقافته الأولى على يد أبيه المرحوم الشيخ أحمد العيسى في القرية، وتحت شجرة التوت التي تظلل باحه الدار، حفظ القرآن، والمعلقات وديوان المتنبي، وآلاف الأبيات من الشعر العربي، ولم يكن في القرية مدرسة غير «الكتاب» الذي كان في الواقع بيت الشاعر الصغير، والذي كان والده الشيخ أحمد يسكنه، ويعلم فيه.
- بدأ كتابة الشعر في التاسعة أو العاشرة، كتب أول ديوان من شعره في القرية تحدث فيه عن هموم الفلاحين وبؤسهم.
- دخل المدرسة الابتدائية في « مدينة أنطاكية» – وضعه المدير في الصف الرابع مباشرة – وكانت ثورة اللواء العربية قد اشتعلت عندما أحس عرب اللواء بمؤامرة فصله عن الوطن الأم سورية.
- شارك بقصائده القومية في المظاهرات والنضال القومي الذي خاضه أبناء اللواء ضد الاغتصاب وهو في الصف الخامس، والسادس الابتدائي.
- غادر لواء الاسكندرية بعد سلخه ليتابع مع رفاقه الكفاح ضد الانتداب الفرنسي، وواصل دراسته الثانوية في ثانويات حماة واللاذقية ودمشق، وفي هذه الفترة ذاق مرارة التشرد وعرف قيمة الكفاح في سبيل الأمة العربية ووحدتها وحريتها.
- دخل السجن أكثر من مرة بسبب قصائده ومواقفه القومية.
- شارك في تأسيس البعث منذ البدايات وهو طالب في ثانوية جودة الهاشمي بدمشق – كانت» التجهيز الأولى» في ذلك العهد – في أوائل الأربعينيات.
- أتم تحصيله العالي في دار المعلمين العالية ببغداد، بمساعدة من العراق الشقيق.
- عاد من بغداد وعين مدرساً للغة والأدب العربي في ثانويات حلب.
- بقي في حلب من سنة 1947م1967-م يدرس ويتابع الكتابة والنضال القومي.
- انتقل إلى دمشق موجهاً أول للغة العربية في وزارة التربية.
- كان من مؤسسي « اتحاد الكتاب العرب» في سورية عام 1969م.
- متزوج له ثلاثة أولاد ط معن، وغيلان، وبادية.
- يحسن الفرنسية والانكليزية إلى جانب لغته العربية، ويلم بالتركية.
- زار معظم أقطار الوطن العربي وعدداً من البلدان الاجنبية.
- اتجه إلى كتابة شعر الأطفال بعد نكسة حزيران عام 1967.
- شـارك مع زوجته الدكتورة ملكة أبيض في ترجمة عدد من الآثار الأدبية أهمها آثار الكتاب الجزائريين.
- في تشرين الأول» أكتوبر» حصل على جائزة « لوتس» للشعر من اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا.
- وفي عام 1990م انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق.

من أعماله:

- الأعـمـال الشعرية» في أربعة أجـزاء» عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت الطبعة الأولى 1995م.
- على طريق العمر: معالم سيرة ذاتية، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر أيضاً، الطبعة الأولى 1996م.
- الثمالات «بأجزائها الثلاثة» ثمالات 1، وثمالات2 عن الهيئة العامة للكتاب في صنعاء وثمالات 3 « أحلام شجرة التوت» عن وزارة الثقافة بدمشق صدرت كلها مابين 1999-1997م.
- ديـوان اليمن : عن الهيئة العامة للكتاب في صنعاء 1999م.
- ديوان الأطفال: صدر عن دار الفكر في دمشق عام 1999م في طبعة جديدة مزيدة ومنقحة.

أغاني الحكايات: ديوان للأطفال يضم الأناشيد المستوحاة من القصص المعربة.

- قصص الأطفال المعربة: بالاشتراك مع الدكتورة ملكة أبيض وبعض الزملاء. صدرت عن دار طلاس ودار الفكر في دمشق.
- الديوان الضاحك: ويضم الشعر الساخر، شعر الدعابة والتسلية.
- الكتابة بقاء: مجموعة شعرية صـدرت عن مؤسسة الإبداع للثقافة والآداب والفنون – صنعاء عام 2002م.
- يمانيات: مجموعة شعرية صدرت عن وزارة الثقافة والسياحة – صنعاء عام 2004م.
- ديوان عدن: صدر عن جامعة عدن ،عام 2004م.
- ثمالات4، صدر عن وزارة الثقافة – صنعاء عام 2004م.